الحيرة

المدينة والمملكة العربية

تأليف

يوسف ذنون ابن غنيمة

مطبعة دنكور الحديثة * بغداد

سنة — ١٩٣٦

الرسم (١) مقابل ص ١

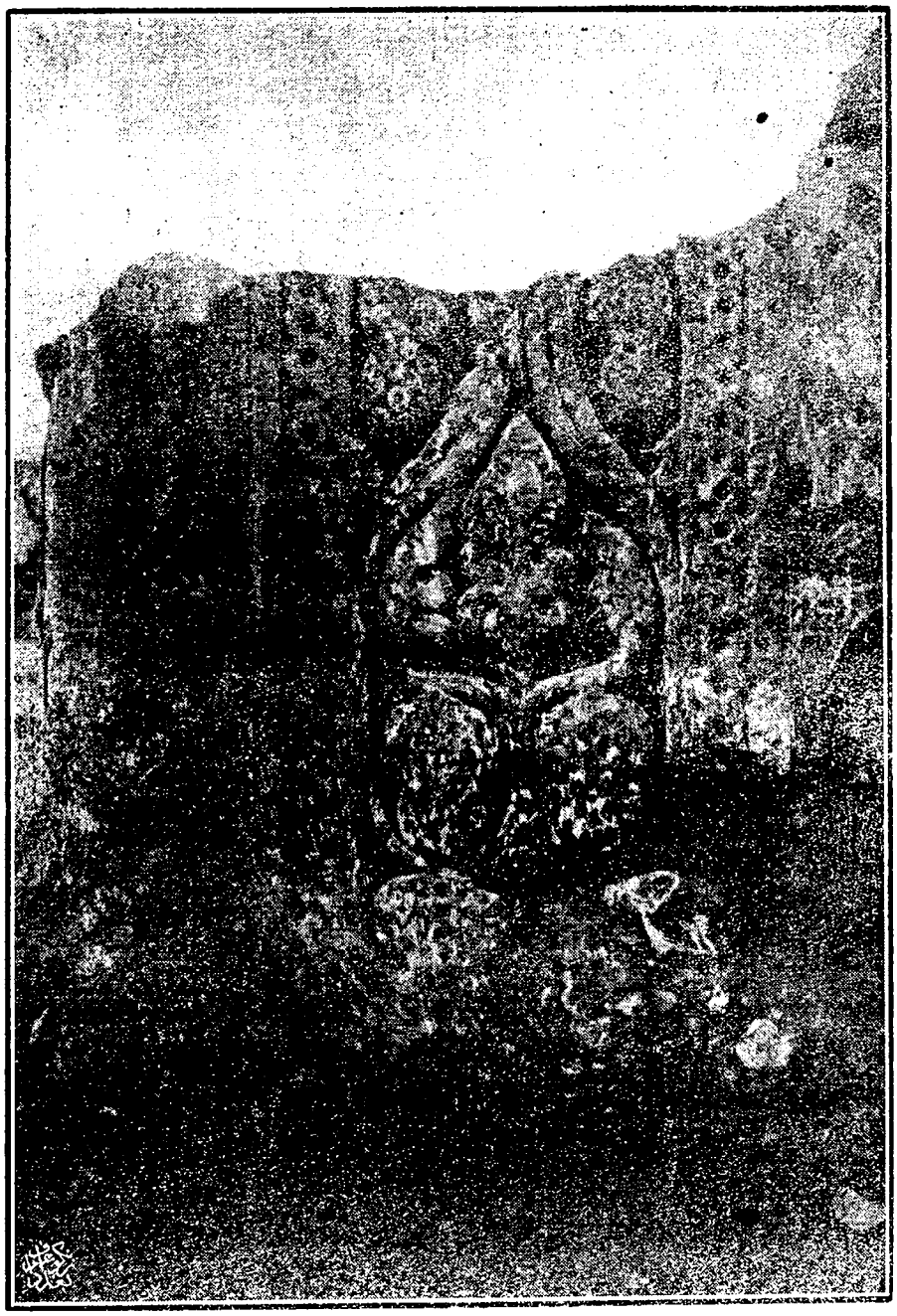

منكب (عضادة) باب ارتفاعه ٦٠ س وعرضه ٤٠ س من بداية القرن الثامن
وجد في الحيرة

المقدمة

لتاريخ العراق ادوار خطيرة في نشوء المجتمع البشري وصفحات رائعة في سير الحضارة وتقلبات السياسة . ولايخلو تاريخه من غموض وابهام في بعض الحقب سواءً أكان من نقص في تدوين الاحداث او لطموس آثارها . ومن المواضيع التي تكتنفها الظلمات ولها روعتها التاريخية موضوعان اولهما تاريخ بابل منذ فتوح اسكندر ذي القرنين إلى الفتح الاسلامي وثانيهما مدينة الحيرة ومملكتها العربية فلايعرف عنهما إلاَّ الشيء النزر (١) . والمتوقَّع ان تهتك ستور الغموض بنبش الأطلال القديمة ، مستودعات الاسرار الماضية . مهما كان من امر غموض تاريخ دولة الحيرة فانه اوضح من تاريخ دولة الغساسنة في الشام واثبت منه لأنه كان مدوَّناً في كتب الحيرة مثبتاً في كنائسهم واشعارهم وفيها انسابهم واخبارهم ومبالغ اعمار من ولي منهم للأكاسرة وتاريخ نسبهم وعليها كان معوَّل المسلمين في ما اوردوا من اخبار الدولة (٢) .

كانت مملكة الحيرة نظراً إلى وضعها السياسي حاجزاً بين دولتين عظيمتين دولة القياصرة في الغرب ودولة الأكاسرة في الشرق او كما يطلق عليها الانكليز « Buffer State » او كما تعرف عند الفرنسيين (Etat Tampon) . وكان ملوك الحيرة من اقيال ملوك الفرس الأكاسرة وعمّالهم كما كان الغسانيون في الشام عمّال الروم . ولآل نصر وقائع وحروب دامية وغزوات خملوا بها على الروم وعمّالهم الغسّانيين انتصاراً للفرس او هجموا على الأمراء والقبائل العربية لتثبيت سيطرتهم . فكانوا تارة ظافرين وطوراً مغلوبين .

وكان للحيرة خطورة اجتماعية وعلمية وادبية ولا نظننا مغالين ان قلنا ان تاريخ الآداب العربية في الجاهلية متغلغل في تاريخ الحيرة .

ان ما كان للحيرة من الشأن الرفيع والمنزلة الجليلة حدا بي إلى وضع هذا الكتاب .

---

(١) Manchester Guardian dated 7. 12. 31

(٢) الطبري ٢ ٣٧ وتاريخ ابن خلدون العبر ٢ : ٢٦٢ وجرجي زيدان العرب قبل الاسلام ١ : ١٩٧

وكيف لا تدفعني عوامل مجد العرب أبناء قومي إلى بذل الجهود للتنقيب عن آثارهم وتخليد ذكرى عظمتهم ودرس حضارتهم الفنّانة .

ان حب المفاخرة بالعرب لم يكن عقبة في سبيل قيامي بواجب المؤرّخ الصادق النزه بل تناسيت في مواقف النقد والتمحيص النعرة القومية ليتسنى لي ان اغوص على درر الحقائق في لجج القرون الماضية فاخرجها املأ مجردة عن كل ما من شأنه الحط من قدرها العلمي او الزيادة في قيمتها فمدحت حيث وجب الاطراء ونقدت في مواطن النقد ولمت في مواقف اللؤم والتثريب ونقلت نقل الأمين النزه حيث دعا الحال وتطلب المقال .

قد اعتمدت في كتابي هذا على امهات الكتب العربية والفارسية واليونانية والسريانية والانجليزية والفرنسية والألمانية المعوّل عليها في مثل هذه البحوث . وذكرت المراجع لتسهيل التثبت من صحة مرويّاتي .

اعترف مع ذلك بأني مهما بذلت من الجهود لأخرج كتابي هذا كاملاً مستوعباً تاريخ مدينة الحيرة ومملكتها فانّ عقبات كأداء حالت دون تحقيق هذه الرغبة بأتم مظاهرها ، منها نزر الأخبار وتضاد المرويّات واضطراب الروايات وطموس الحقائق وفقدان الوثائق على توالي الزمان وتعاقب الحدثان وبالرغم من هذه المصاعب فقد خرقت لي محجة بين هذه الآكام والاخاديد ومهّدت لي طريقاً سويّاً لبلوغ معظم ما رغبت فيه ونوال اكثر ما صبوت اليه .

فارجو من الاساتذة المحققين والعلماء المدققين والأثريين النبّاشين ان يواصلوا ابحاثهم في تاريخ الحيرة ويطلعوا العالم على اخبار تلك المدينة القديمة والمملكة الغابرة ويكشفوا الستار عن حضارة العرب في تلك الحاضرة المشحونة اطلالها بالآثار النفيسة كما ان رجائي وثيق بان حكومة العراق تعير اهتماماً للحفر في الحيرة وفق ما رغبت فيه احدى الوزارات .

وآخر امنية اعرب عنها ان ينتقد العلماء هذا المؤلف بما لديهم من علم وعرفان فالكمال والعصمة لله وحده ؟

ى . ر . غنيمة

٣

نظرة

في وضع العراق وجيرانه في عهد ملوك الحيرة

يجدر بنا قبل ان نأتي على تاريخ الحيرة ومملكتها ان نلقي نظرة عامة على وضع العراق السياسي وما جاوره من الممالك ونطّلع على بعض الاحداث الخطيرة في الحقبة التي وجدت فيها مملكة الحيرة منذ نشأتها في القرن الثاني للميلاد حتى انقراضها على يد الفاتحين المسلمين في بدء الربع الثاني من القرن السابع وذلك في عهد السلالتين التنوخية واللّخمية .

كان منشأ مملكة العرب الاولى او سلالة التنوخيين في القرن الثاني للميلاد وكان العراق يومئذٍ في حكم ملوك الطوائف او الملوك الاشغانيين الذين يسميهم الاوربيون « الفرتيين » (Parthians) .

نرى في هذا القرن الحروب قائمة على ساق وقدم بين الاشغانيين والروم . فاستولى الروم اكثر من مرة على هذه الديار واحتلّوا سلوقية وطيسفون عاصمة البلاد . فاحتلّها اولاً تريانوس « Trajan » ١١٥ — ١١٦ (١) واستولى عليها ثانية اوديوس كاسيوس « Avidius Cassius » سنة ١٦٤ وكان ذلك في عهد الملك الاشغاني بلاش الثالث « Yolgases III » وبعد بضع سنوات اي في عام ١٩٧ فتح الملك سورس « Severus » طيسفون بعد ان اخفق بلاش الرابع في الدفاع عنها (٢) وكان الروم يخلون هذه الديار بعد احتلالها لاسباب منها بعدها عن مركز قوتهم .

قامت الحروب الداخلية في بلاد الاشغانيين بعد وفاة بلاش الرابع سنة ٢٠٩ لتنازع ابنيه العرش حتى اتفقا على تجزئة الملك فحكم احدهما اردوان القسم الغربي من الدولة وحكم بلاش بابل (٣) . وكان الضعف قد اخذ من الدولة مأخذه

---

(١) P. M. Sykes : A history of Persia 1. 412

(٢) Ibid 1 : 414 — 415

(٣) Ibid 1 : 416

وفتقت الفتوق على اردوان « Artabanus » فالتفّ حول اردشير مؤسس الدولة الساسانية امراء فارس الذين كانوا مستقلّين بعض الاستقلال فدحر اردوان في وقعة هرمز سنة ٢٢٦ وقتل في تلك المعركة فانطوى بموته بساط الدولة الاشغانية وتولى الحكم الساسانيون (١) .

وكانت الدولة الاشغانية مترامية الاطراف إلاّ انها لم تكوّن وحدة سياسية بل كانت منقسمة إلى امارات يحكمها امراء او اقيال كامارة حذياب او يحكمها صهبذ يسمى « وتاش » « Vitaxa » كما كانت تحكم بابل . هذا فضلاً عن الاوضاع الخاصة بالمدن اليونانية فانها كانت تقتصر سلطة الاشغانيين عليها على اخذ الاتاوة ليس إلاّ . ويرى مدوّناً حتى في مسكوكات بعض الملوك الاشغانيين الجملة « محب اليونان » « Philhellen » وكان لليهود ادارة خاصة ولبعض مدنهم في هذه الديار استقلال يضاهي استقلال المدن اليونانية (٢) .

فلا عجب اذا رأينا في هذه التضاعيف قبائل عربية تهبط العراق وتؤسس مملكة مستقلة في عبر الفرات وقد حاصر احد ملوكهم وهو جذيمة الابرش الملك اردشير مؤسس الدولة الساسانية . وكان جذيمة آخر التنوخيين الذين لم يطل اجل حكمهم بل استورثهم اللخميون ودام حكم اللخميين دوام الدولة الساسانية مع فترات قليلة تخللت حكمهم وانقرضوا بانقراضها .

ففي الحقبة التي ساد فيها الساسانيون من سنة ٢٢٦ إلى سنة ٦٣٥ وحكم فيها اللخميون في الحيرة جرت حوادث خطيرة نلخصها بما يأتي :

حارب الساسانيون دولة الروم مراراً وحاربوا الدولة البزنطية بعدهم والارمن والهياطلة والهونيين البيض والترك والعرب وامارة الحضر فاشترك اللخميون في معظم هذه الحروب وابلوا البلاء الحسن في الدفاع عن تاج الأكاسرة وكانوا في محاربة الروم عنصراً مهماً وفرساناً غزاة لشيطين اوقدوا النيران وهرقوا الدماء في بلاد مضر وسورية وانسحبوا عنها قبل ان يستطلع امرهم قوّاد الروم (٣) .

---

(١) Sykes : A history of Persia I : 425

(٢) Ibid 393 — 394

(٣) Labourt : Le Christianisme dans L'Empire Perse 3

وكان الدين السائد في العراق دين المجوسية ولكهنته وسدنته نفوذ عظيم في الدولة وكان اعظمهم رتبة يسمى موبذان موبذ وهو الذي يتوّج الملك (١) وفي عهد الدولة الساسانية ظهر ماني الزنديق سنة ٢٤١ ونشر مذهبه وظهر سنة ٥٢٩ مزدك وبث مذهب الشيوعية فشايعه قباذ وقضى كسرى على صاحب هذا المذهب وعلى اشياعه (٢) .

واشتهرت في هذه الحقبة مدارس اليهود في بابل وهي مدارس نهر دعة وسورا وفم البادية او فم البداءة (بمباديتة) وكان من ثمرة هذه المدارس التلمود البابلي (٣) .

وانتشرت النصرانية في هذه الاعصر انتشاراً عجيباً في بلاد فارس وازدهرت مدارسهم وكنائسهم وديوراتهم ومجامعهم بالرغم من الاضطهادات القاسية التي جرّعهم غصصها الساسانيون بتحريض سدنة النار بحجة علائقهم بابناء دينهم الروم . وفي ابان الحكم الساساني دخلت النسطورية كنيسة المدائن واستحكمت فيها بمؤازرة السياسة الفارسية التي رمت إلى اقامة فواصل مذهبية بين نصارى فارس والروم . ودان في هذه المطاوي بالنصرانية كثير من العرب وحمل المبشرون النسطوريون راية التبشير إلى الهند والصين .

وكان الأكاسرة على جانب عظيم من الترف والتأنق في بناء القصور العظيمة ومنها ايوان كسرى وقصر شيرين كما تفننوا في المأكل والشرب واللباس والأثاث والآنية وولعوا في العاب الفروسية كلعب الصولجان ومالوا إلى الصيد والقنص وحبوا مظاهر الابهة ومجالي العظمة ونشطوا العلم وشجعوا المعارف .

فهذه العوامل كلها والاحوال جميعها كانت من مميزات العصر التي نشأت فيها الحيرة وعاشت دولها في مطاويها .

---

(١) الطبري ٢ : ٧٧ (٢) الطبري ٢ : ٩٣ (٣) غنيمة تاريخ يهود العراق ٩١

٦

نزوح العرب الى العراق

سكن وادي الفراتين في فجر التاريخ جيلان من الناس وهما الشمريون والاكديون. اطلق العلماء اسم الشمريين على سكان معظم المدن التي كانت في جنوبي العراق قبل ان يحتلّها الاكديون الساميون ولا يعرف بدء التاريخ الذي شرع فيه الساميون بالانصباب على بابل كما يجهل الزمن الذي بدأت فيه سيادتهم. فهذه مواضيع لم يعالجها التاريخ حتى الآن. إلا اننا نجدهم في هذه البلاد ولهم سلطة واسعة النطاق غالباً منذ أقدم العصور التاريخية (١) فالاكديون ساميون هم والعرب والاثوريون والعبريون من ارومة واحدة. والراجح من الفرضيات انهم هبطوا بابل من الشمال الغربي أي من جزيرة العرب فاجتازوا في هجرتهم هذه سواحل البلاد السورية. فانصبت قوافل الرحل انصباباً على بابل وتركت وراءها جماعات من بقاياها في سورية وبلاد كنعان عرفوا بعد ذلك بالاموريين أو الساميين الغربيين لأنهم سكنوا بلدة أمورو في سورية العليا. وبعد عهد جاء الاموريون انفسهم وحلّوا في الجنوب الشرقي من بابل وأسسوا دولة اسين قريباً من نبر (نفر). وفي سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد أسسوا أقدم مملكة مستقلة في بابل وكان رأس السلالة الحاكمة الملك سموابو. وبعد مئة سنة من نشأتها انجبت الملك حمورب المشترع البابلي العظيم (٢) وانتهى الامر باندثار الشمريين فدالت دولتهم وانطوى ذكرهم بسيطرة الاكديين الساميين نهائياً. والسر في اندثار الشمريين من هذه الاقطار انقطاع الهجرة الجديدة من عنصرهم إلى العراق وتوالي هجرات الاكديين الساميين مما قوى منزلتهم واثبت مقامهم وقضى على خصومهم من الشمريين قضاءً مبرماً.

يذهب العلماء ان وطن الاكديين الساميين كان بلاد العرب الوسطى ولم تكن تلك الشقة من جزيرة العرب قاحلة جرداء كما نراها اليوم بل كانت خصبة في العصور العريقة بالقدم تصلح للعيش والحياة والسكنى (٣).

---

(١) C. H. W. Johns : Ancient Babylonia 18 — 19

(٢) E. Behaven : The Lands of the Two Rivers 31

(٣) L. W. King : A. History of Babylon 116 — 120

لم تنقطع الهجرة من جزيرة العرب إلى العراق في ادوار التاريخ المختلفة سواء أكانت افراداً أو جماعات بل نرى سكان تلك الجزيرة يهبطون العراق في مختلف العصور ولكن مما يؤسف له ان اخبار العرب في هذه الديار في القرون السالفة وحتى القرن الاول للميلاد طامسة في ظلمات كثيفة من الغموض والابهام فلم نقف على حالها وتفاصيلها (١) إلا اننا نعثر في ثنايا مرويات المؤرخين العرب وغيرهم على بعض انبائهم وعن تاريخهم في هذا الصقع مما يحتاج إلى تمحيص وتحقيق ومنها :

١ -- ذكر المسعودي (٢) عن شداد بن عاد من العرب العاربة ان ملكه احتوى على سائر ممالك العرب وله مسير في الارض ومطاف في البلاد وبأس عظيم في ممالك الهند وغيرها من ممالك الشرق والغرب (اه) يجوز ان نحمل هذه الرواية على هجرة العرب او العاديين الاولين الذين ملكوا بابل وأشور في القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد وبلغت فتوحاتهم الهند كما اظهرته العاديات المكتشفة في اطلال بابل . او بعبارة اخرى يراد بهم سموابو ورهطه الذين مر ذكرهم قبيل هذا .

٢ — روي عن شمر مرعش وهو المشهور من ملوك التبابعة ذوي المغازي والآثار البعيدة (٨٥٠ قبل الميلاد) انه جاء العراق وفارس وخراسان .

٣ — جاء في الطبري (٣) ان التجار العرب كانوا يقدمون إلى بابل في عهد نبوخذ نصر بالتجارات والبياعات ويمتارون منها الحب والتمر والثياب وغيرها . فوثب عليهم نبوخذ نصر وجمع من ظفر منهم فبنى لهم حيراً على النجف وحصنه ثم ضمهم فيه ووكل بهم حرساً وحفظة ثم نادى الناس في الغزو . وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب فخرجت اليه طوائف منهم مسالمين مستأمنين . فانزلهم السواد على شاطئ الفرات وبنوا الانبار . فبقيت هذه الجماعات في الحيرة والانبار .

٤ — ومن الهجرات العربية المهمة إلى العراق تلك التي حدثت بعد بثق سد مأرب وتدفق سيل العرم (٤) . وقد اثبت المستشرق دي ساسي وغيره

---

(١) مجاني الادب ٣ : ٣٠٤
(٢) مروج الذهب
(٣) ١ : ٢٩١
(٤) الطبري ٢ : ٢٨ وحمزة الاصفهاني ٦٣

من المحققين ان بثق سد مأرب كان في اواخر القرن الاول للميلاد أو اوائل القرن الثاني نحو سنة ١٠٢ م وعلى اثر هذا الطوفان نزل مالك بن فهم بقبائله فيما بين الحيرة والانبار وأسس بعدئذٍ سلالة التنوخيين في تلك الديار ، تلك السلالة التي اتخذت الحيرة عاصمة لملكها في عهد جذيمة الابرش (٢٠٨ ـ ٢٦٨ م) وأضحت الحيرة بعد ذلك ولاسيما في عهد ملوكها اللخميين (٢٦٨ ـ ٦٣٢ م) مركزاً مهماً للعرب .

٥ — وجاء عن التبع سعد ابي كرب (٢٠٠ — ٢٣٦ م) انه نزل بالعراق ومر بالحيرة وخلف قوماً من الازد وجذام وقضاعة فبنوا بها ثم انتقل اليهم بعد ذلك ناس من طي وكلب وسكون وبلحرث بن كعب وأياد (١) .

فصارى القول ان جماعات من العرب نزلوا العراق منذ زمن عريق في القدم ولا نعرف اسماء قبائلهم وبطونهم وافخاذهم كلها وكان منهم فرق مبثوثة في الشمال في اطراف الحضر وما فوقه وفي الوسط والجنوب في الحيرة والانبار والأبلّة وغيرها فغيرها . ونرى منذ منشأ مملكة الحيرة قبائل وبطوناً وافخاذاً من العرب في العراق ومنهم مذحج وكلب وحمير وطي وقضاعة وازد وأياد وبكر وتغلب وربيعة وجذام ونمارة والسكون وبلحرث بن كعب وتميم وبنو العبيد وبنو أسد وبنو بهراء وبنو صالح وبنو يزيد .

خاف ملوك الفرس الاشغانيون والساسانيون من العرب حتى ان اردشير مؤسس الدولة الساسانية ضيّق الخناق عليهم فكرهت قضاعة الاقامة في العراق فهاجر منهم قوم إلى الشام (٢) . ومن ذلك ان سابور بن اردشير (٢٤١ — ٢٧٢ م) في حملته على الضيزن ملك الحضر قتل نحو مئة الف رجل من قضاعة وأفنى قبائل كثيرة كالعبيد وأصيبت قبائل حلوان وانقرضوا وفي ذلك يقول الجدي بن الدلهات وينسب بعضهم هذا الشعر إلى عمر بن آلة (٣) :

ألم يحزنك والانبـاء تنمي بما لاقت سـراة بني العبيد

« ١ » ابن الاثير ١ : ١٠٨ « ٢ » معجم البلدان مادة « الحيرة » والاغاني ٢ : ٣٥ وكوسن دي برسفال : تاريخ العرب ٢ : ٤١ ومابعده والطبري ٢ : ٦٧

« ٣ » ابن الاثير ١ : ١٣٩

ومصرع ضيزن وبني أبيه واحلاس الكتائب من ثزيد
أتاهم بالفيول مجللات وبالابطال سابور الجنود
فهدم من اواسي الحصن صخراً كأن ثفاله زبر الحديد

وقد نسب بعض المؤرخين هذه الحادثة إلى سابور ذي الاكتاف وألمع ياقوت في معجمه إلى هذا الاختلاف (١).

واشتهر سابور ذوالاكتاف (٣٠٩ — ٣٧٩ م) بمحاربته العرب واضطهادهم فقتل منهم من انتجع بلاد فارس ابرح القتل لا بل غزاهم في بلادهم واسر منهم اعنف الاسر ونزع اكتاف رؤسائهم (٢) ونقل جماعة منهم من الانبار إلى بقة والعقير وحفر خندقاً في برية الكوفة بينه وبين العرب (٣) وبنى مدينة هفة (٤) واسكنها أياداً لما قتل منهم من قتل في مدينة شالها.

وخشي أمرهم كسرى انوشروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) وحفر خندقاً من هيت يشق طف البادية إلى كاظمة (٥).

هذه نبذة موجزة عن نزوح العرب إلى العراق في الجاهلية تفيد موضوع كتابنا في الحيرة ولا نتصدى لذكر أعظم هجرة عربية إلى العراق وهي التي أعقبت الفتح الاسلامي. إذ استولى العرب على العراق وقرضوا دولة الاكاسرة. وأصبحت هذه الديار عربية.

---

١) الاغاني ٢ : ٣٥ والطبري ٢ : ٦٢ ومعجم البلدان مادة « الحضر »
٢) الطبري ٢ : ٦٧
٣) معجم البلدان مادة « خندق سابور »
٤) كذلك مادة « هفه » ومادة « شالها » : يسمى النبط مدينة هفة « هفة طرناي » جعلها سابور محبساً واتخذها بعده خلفاؤه منفى لكل من سخطوا عليهم ووسمت بالنفي واللعن ويفهم من كلام الطبري انها كانت في ارض جرجرايا في بقعة البطائح
٥) معجم البلدان مادة « خندق سابور »

١٠

مدينة الحيرة

في اللسان الذي ادلعه البر في الريف (١) وبالقرب من الملطاط (٢) حيث طاب الثرى ورقّ الهواء وعذب الماء ترى سهلاً وشّته الطبيعه بالريحان وزيّنته بشقائق النعمان واجادت عليه بخصب حدّث به كل لسان . هناك مسرح الريم والغزلان ومهتف اليمام ومناح الحمام وديارات النساك والرهبان ومهبط الوحي والالهام (٣) في ذلك الوسط الرائع الجمال كانت المدينة البيضاء الحيرة الروحاء (٤) قائمة كعروس في مطارف دلالها مستندة إلى مشرفة النجف . ترمق بالعين الواحدة البحر وبالعين الاخرى بادية الشام وتطرب لانغام نهر الكافر (٥) وهي راكبة جانبيه الشرقي والغربي (٦) ونهرها منفوق من الفرات إلى النجف (٧) نفقه تُبَّعٌ بامر الحارث بن عمرو الكندي (٨) وكانت تتيه عزاً وخيلاء بقصورها العامرة وديارها الزاهرة ومنتزهاتها الباهرة .

تقع مدينة الحيرة في جنوبي الكوفة وعلى بعد ثلاثة اميال (٩) منها وتبعد عن النجف مسيرساعة للفارس إلى جنوب شرقيه (١٠) وتشاهد اليوم اطلال مبانيها وقصورها وديارها وكنائسها في ناحية الجعّارة قبلاً وتسمى اليوم ناحية الحيرة وهي من نواحي لواء الديوانية (١١) وحوالي النجف حيث كانت بلاد العيون وتسمى اليوم بلاد القصور (١٢) .

قال ياقوت : كان بناء الحيرة في موضع يقال له النجف إذ زعموا ان بحرفارس

---

١) جاء في معجم البلدان في مادة لسان : اللسان : لسان البر الذي ادلعه في الريف عليه الكوفة اليوم والحيرة قبل اليوم

٢) معجم البلدان : وتغنى به عدي بن زيد اذ قال :

هيج الداء في فؤادك حور . ناعمات بجانب الملطاط

٣) الهام الشعر ٤) الحيرة البيضاء والحيرة الروحاء من اسماء الحيرة عن ياقوت

٥) الاغاني ٢١ : ١٢٥ في ابيات للمتلمس اذ قال :

والقيتها بالثني من جنب كافر : كذلك افنو كل قطر مضلل

٦) الاغاني ٢ : ١٨ ٧) معجم ما استعجم للبكري ٣٠٣ ٨) الطبري ٢ : ٩٠

٩) معجم البلدان ١٠) لامنس في المعلمة الاسلامية مادة « حيرة »

١١) مجلة لغة العرب ٦ : ٤٤٣ ١٢) كذلك ٤ : ٣٢٥

كان يتصل به (١) وعندنا ان ليس في ما ذكره ياقوت من غريب إذ ان مصب كل من دجلة والفرات كان يبعد الواحد عن الآخر شقة بعيدة في بعض ادوار التاريخ . وليس نضوب بحر النجف او بحيرة النجف كما يدعوها بعض الكتبة المحدثين ببعيد عنا فانه جف سنة ١٣٠٥ هجرية (١٨٨٧ م) .

عرف الاراميون بحيرة النجف باسم فرثا « פרתא » بمعنى البثقة واطلق اليهود عليها اسم « حاشير » (٢) ومعناه مجموع المياه وهذا اللفظ والحشر بالعربية بمعنى الجمع من اصل واحد .

اختلف العلماء في معنى اسم الحيرة فمنهم من قال انه عربي مبنى ومعنىً . فذهب الهمذاني انه مشتق من الحيرة لأن تبعاً لما اقبل بجيوشه ضلّ دليله فتحير في هذا الموضوع . ومنهم من قال انه من الحير بمعنى الحمى والملجأ كما تقول البقعة من البقاع (٣) . ومنهم من ذهب إلى انه مشتق من فعل حار الماء اي تردد لايدري كيف يجري بالنظر إلى ركود مياه بحر النجف (٤) والرأي الراجح اليوم ان الكلمة ارمية النجار من « חירתא » وهي المعسكر والدير والحصن (٥) ومما يؤيد هذا الرأي ما قاله العلامة نلدكة وهو ان رؤساء قبائل غسّان كانوا يسكنون في احياء قسم منها ثابت بالبناء والمدر وقسم آخر غير ثابت من جنس المضارب والخيم كانوا ينقلونه من محل إلى آخر للدفاع عن التخوم وحراستها وكانوا يدعون تلك الاحياء باسم ارامي « חארתא » ومنها اشتق العرب اسم الحيرة (٦) وعندنا ان الحيرة الارمية والحير العربي من اصل سامي واحد إذ ان المضرب والمعسكر والحمى الفاظ يدل اصلها على معنى واحد (٧) .

لا يُعرف مؤسس الحيرة معرفة اكيدة ولهذا تضاربت آراء المؤرّخين في بانيها وتاريخ نشأتها . فنسب العرب بناءها إلى نبوخذنصر (٨) وقالوا انها خربت بعد

١) معجم البلدان ٢) المعلمة الاسلامية مادة « حيرة » ٣) معجم البلدان
٤) تاج العروس ٥) اوجين منا : دليل الراغبين وامين واصف : الفهرست ص ٤٧
٦) مجلة المشرق سنة ١٩٠٨ ص ٧٧١ و Ghassaniden Tursten 47
٧) ووردت חירתא في المعاجم الكلدانية : ارض ذات تلال ومغاور
٨) معجم البلدان

موته وانتقل عربها إلى الانبار وبقيت خراباً إلى ان هاجر رهط من اولاد معن ابن عدنان وطنهم تهامة من بلاد اليمن سواء أكان لحروب او لاحداث حدثت فنزلت قبائل منهم البحرين وبها يومئذٍ جماعة من الازد . وكان بين المهاجرين من تهامة مالك وعمر ابنا فهم بن تيم الله من قضاعة . فاتفقت الازد وقضاعة على التحالف فسموا تنوخاً وبهذا تمّ التكون التاريخي لاسم تنوخ في ايام ملوك الطوائف . فتطلعت انفس من كان بالبحرين من العرب إلى ريف العراق واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف ونزل كثير من تنوخ الانبار والحيرة وما بين الحيرة إلى طف الفرات وغربيه إلى ناحية الانبار وما والاها فتملك على تنوخ العراق مالك بن فهم وجعل منزله الانبار واتخذ في الحيرة قصراً وبستاناً واقطع رجاله الاقطاع فيها . وعظم اسم الحيرة في ايام الملك عمرو بن عدي من آل نصر اللخميين وبقيت عاصمتهم حتى الفتح الاسلامي (١) .

بدأ خراب الحيرة منذ أنشأ المسلمون الكوفة سنة ١٧ هجرية (٦٣٨ م) ولم يزل عمرانها يتناقص من الوقت الذي ذكرنا (٢) .

وبني بعض قصور الكوفة وبيوتها بآجر واساطين رخام قصور الحيرة (٣) وقد نهج أعراب تلك الديار تلك الطريقة وهدموا قصور الحيرة وبيوتها على ممر القرون وتتابع الأجيال للاستفادة من انقاضها في الأبنية الحديثة التي بنوها (٤) ولا تزال آثار ذلك التخريب بادية لأعيان الأثريين الذين يحفرون في تلك الأطلال (٥) .

مع ذلك بقيت مأهولة عهداً غير قليل في عصر العرب المسلمين ووقع فيها حوادث منها القتال الذي وقع بين مضرية الكوفة والحيرة ولم يصطلحوا ويصبح امرهم واحداً إلا بظهور الضحّاك سنة ١٢٧ هجرية (٧٤٥ م) (٦) . ونال رواة اهل

---

١) معجم البلدان والطبري ٢ : ٢٨ ٢) المسعودي : مروج الذهب ٣ : ٢١٣

٣) الطبري ٢ : ١٩١ ـ ١٩٢ ٤) مجلة لغة العرب ٢ : ٣٢٣

٥) Hira : Journal of the Royal Central Asian Society Part 2 April 1932 P. 261.

٦) الطبري ٩ : ٥٨

الحيرة مكانة بين المسلمين (١) .

نزل الحيرة غير واحد من الخلفاء فكان فيها السفاح سنة ١٣٤ هجرية (٧٥٢ م) وانتقل منها إلى الانبار في ذي الحجة من تلك السنة عينها ونزلها المنصور سنة ١٣٧ هجرية (٢) وحلّ بها هارون الرشيد سنة ١٨٠ هجرية (٧٩٦ م) فسكنها وابتنى بها المنازل واقطع من معه الخطط فوثب به اهل الكوفة واساؤوا مجاورته فارتحل إلى مدينة السلام (٣) ونزلها ثانية في محرم سنة ١٨٧ (٨٠٣ م) برجوعه من مكة واقام في قصر عون العبادي . وكان معه بختيشوع الطبيب (٤) وفي سنة ٢٢٧ (٨٤٢ م) ماتت بها ام الخليفة الواثق ودفنت في الكوفة (٥) والواثق نفسه زارها ودخل دير هند ودير مارت مريم وكان معه ابراهيم الموصلي (٦) وقد زارها واقام فيها في هذه التضاعيف غير واحد من الوزراء .

وقد زارها السيد الشريف محمد الرضي (ر) سنة ٣٩٢ هجرية (١٠٠١ م) فطافها ونظر عجيب آثارها وبنائها ورأى الظباء ترتع في عراصها فانشد القصيدة العصماء الآتية :

ما زلت اطّرق المنازل بالنوى ... حتى نزلت منازل النعمان
بالحيرة البيضاء حيث تقابلت ... شمم العباد عريضة الاعطان
شهدت بفضل الرافعين قبابها ... وتبين بالبنيان فضل الباني
ما ينفع الماضين إن بقيت لهم ... خطط معمرة بعمر فان
ورأيت عجماء الطلول من البلى ... عن منطق عربية التبيان
باق بها حظ العيون وانما ... لا حظ فيها اليوم للآذان
وعرفت بين بيوت آل محرق ... مأوى القرى ومواقد النيران
ومناط ما أعتقلوا من البيض الظبا ... ومجرّ ما سحبوا من المرّان
ورأيت مرتبط السوابق للهجى ... ومعاقل الآساد للذؤبان

---

١ المسعودي : كتاب التنبيه والاشراف ص ٨٣
٢) ابو الفداء ١ : ٢١٣ والمسعودي ٣ : ٢١٣ ٣) الطبري ١٠ ـ ٦٩
٤) الطبري ١٠ ـ ٨٤ ٥) ابن الاثير ٦ ـ ١٩٥ ٦) الاغاني ٥ ـ ١٠١ .

الهاجمين على الملوك قبابهم ... والضاربين معاقد التيجان
وكان يوم الاذن يبرز منهم ... اسد الشرى واساود الغيطان
ولقد رأيت بدير هند منزلاً ... ألماً من الضراء والحدثان
اغضى كمستمع الهوان تغيبت ... انصاره وخلا من الاعوان
بالي المعالم اطرقت شرفاتُه ... إطراق منجذب القرينة عان
أو كالوفود رأوا سماط خليفة ... فرموا على الاعناق بالاذقان
وذكرت مسحبها الرياط بجوه ... من قبل بيع زمانها بزمان
وبما ترد على المغيرة دهيه ... نزع النوار بطئة الاذعان
أمقاصر الغزلان غيَّرك البلى ... حتى غدوت مرابض الغزلان
وملاعب الانس الجميع طوى الردى ... منهم فصرت ملاعب الجنَّان
من كل دار تستظل رواقها ... ادماء غانية عن الجيران
ولقد تكون محلة وقرارة ... لأغبر من ولد الملوك هجان
يطأ الفرات فناءها بعبابه ... ولها السلافة منه والروقان
ووقفت أسأل بعضها عن بعضها ... وتجيبني عبر بغير لسان
قدحت زفيري فاعتصرت مدامعي ... لو لم يؤل جزعي إلى السلوان
ترقى الدموع ويرعوي جزع الفتى ... وينام بعد تفرّق الاعوان
مسكية النفحات تحسب تربها ... برد الخليع معطر الأردان
وكأنما نشر التجار لطيمة ... جرت الرياح بها على العيان
حلل الملوك رمى جذيمة بينها ... والمنذرين تغابر الازمان
طرداً كدأب الدهر في طرد الأُلى ... وإلى الحفائظ في بني الديان
نعق الزمان بجمعهم عن لعلع ... وأقض منزلهم على نجران
وكآل جفنة ازعجتهم نبوة ... نقلت قبابهم عن الجولان
وعلى المدائن جلجلت برعادها ... عركاً لكلكلها على الايوان
وإلى ابن ذي يزن غدت مرحولة ... نفضت حوَّيتها على غمدان

قصفت قنا جدل الطعان وثوّرت بعد الامان بعامر الضحيان
زفر الزمان عليهم فتفرّقوا وجلوا عن الاوطار والاوطان (١)

وفي سنة ٣١٥ هجرية (٩٢٧م) قصد الاعراب سواد الكوفة فنهبوه وخربوه ودخلوا الحيرة فنهبوها . فسير اليهم المقتدر جيشاً فدفعوهم عن البلاد (٢) ويظهر انها امعنت في الخراب والاقواء (٣) في هذه المطاوي حتى كان النصف الاخير من القرن العاشر للميلاد فامسى سكانها قليلين مع ان مساحتها كانت واسعة وتم اندثارها بانقراض الدولة العباسية (٤) .

وقد اشتهرت بطيب هوائها وصفا جوّها وصحة تربتها حتى قيل فيها « يوم وليلة في الحيرة خير من دواء سنة » . وقال ابن عينية سمعت ابن شبرمة يقول يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنتين (٥) ويقال بيتة ليلة بالحيرة انفع من تناول شربة ثادريطوس (٦) وقد اغتبرت في عهدها مستوصفاً يقصده المرضى من ضمرمنهم وجسا (٧) ومع هذا لم تخل من مزعجات البق وغيره من الهوام وقال الدهاب العجلي في ذلك (٨) :

ابى القلب ان يهوى السدير واهله وان قيل عيش بالسدير غرير
به البقّ والحمى واسد خفية وعمرو بن هند يعتدي ويجور

سكان الحيرة

من كان سكان الحيرة ؟ هذا سؤال لابد من تردده على الالسنة . فنقول : مما لا ريب فيه ، فقد كان العنصر العربي السائد هنالك : نظراً إلى موقع الحيرة الجغرافي القريب من بادية الشام محط رحال البدو من العشائر والقبائل والبطون

١) ديوان السيد الشريف الرضي ٢ : ٨٨٥ – ٨٨٧ ٢) ابن الاثير ٩ – ٦١
٣) المسعودي ٣ – ٢١٣ ٤) المعلمة الاسلامية مادة « حيرة » ٥) كتاب تاريخ البلدان لأبي بكر احمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه طبعة ليدن ص ٢٦٢
٦) حمزة الاصفهاني ٧٥ ٧) معجم البلدان مادة « هبالة » والاغاني ٨ – ٤٧
٨) الطبري ٢ – ٩٠ والاغاني ١٢ – ١٢٦

والاخذاذ العربية . ونظراً إلى السلالتين العربيتين اللتين سادتا فيها سلالة التنوخيين وسلالة اللخميين . فاننا نرى في تاريخها ذكر قبائل العرب من مذحج وطي وكلب وتميم ومن التنوخيين مما أطلق عليهم عرب الضاحية (١) وقد قسّم المؤرخون العرب سكان الحيرة ثلاثة اصناف ، فثلث تنوخ وهم كانوا اصحاب المظل وبيوت الشعر ينزلون غربي الفرات فيما بين الحيرة والانبار فما فوقها . والثلث الثاني العباد وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها وهم قبائل شتى تعبدوا لملوكها واقاموا هناك وثلث الاحلاف وهم الذين لحقوا باهل الحيرة ونزلوا فيها من لم يكن من تنوخ الوبر ولا من العباد الذين دانوا لاردشير (٢) .

يحملنا هذا التقسيم على الظن ان المؤرخين العرب صوّروا حالة سكان العراق في كل القرون منذ سكنه الانسان حتى اليوم . فان الاقوام الرحّل ينزلون العراق . قسم منهم يسكن الارياف والقرى او يحل في ضواحي المدن ويصبح في حالة وسطى بين الحضارة والبداوة وقسم يعمر المدن ويسكن البيوت المشيدة .

اما العباديون من الحيريين فهم على رأي ابن عبد ربّه من الجمرات ، بطن في جزيلة من لخم (٣) والاصح انهم قوم من النصارى من قبائل شتّى انفردوا من الناس في قصور ابتنوها لنفوسهم ظاهر الحيرة (٤) وقد جاء في سبب تسميتهم بالعباد انهم لما قاتلهم سابور الاكبر اتخذوا شعاراً لهم يا آل عبادالله فسموا العباد (٥) وقيل لأنهم كانوا يعبدون الله وسموا بهذا الاسم لزهدهم (٦) وجاء في تعليل هذا الاسم انه وفد على كسرى خمسة منهم وكانت اسماؤهم تبتدئ بكلمة عبد وهم عبدالمسيح وعبد ياليل وعبد يسوع وعبدالله وعبد عمرو فقال كسرى : انتم عباد كلكم . فسموا العباد (٧) .

وقد اشتهر العباديون بنصرانيتهم وبمعرفتهم القراءة والكتابة في عهد جهلها اكبر الشعراء النوابغ ودليلنا على ذلك ان صبياً منهم قرأ للمتلمس الشاعر المغلق

---

١) معجم البلدان مادة « حيرة » ٢) حمزة الاصفهاني ٦٦ ٣) العقد الفريد ٢ ـ ٢٥٣
٤) ابي القفطي كتاب الحكماء ١٩٩ ٥) الاغاني ١١ ـ ١٥٦ ٦) التاج ٢ ـ ٤١٠
٧) البكري : معجم ما استعجم ١٨